بالأمس كان مهلّلاً

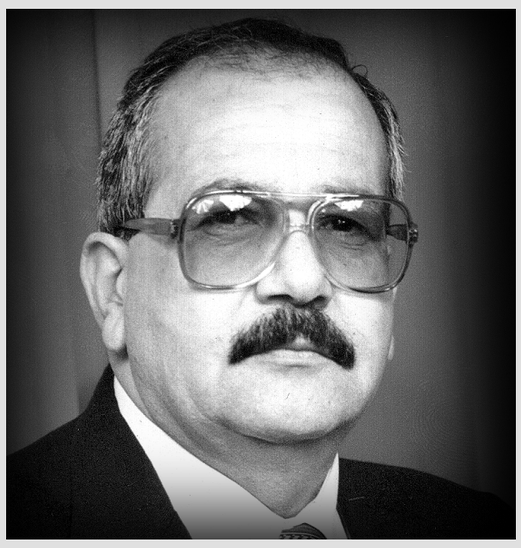

■ ألقى الأستاذ الدكتور حسين جمعة، رئيس اتحاد الكتاب العرب السابق، هذه القصيدة في يوم عزاء الرفيق باسم عبدو، عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوري الموحد، ورئيس تحرير جريدة (النور)، وعضو المكتب التنفيذي لاتحاد الكتاب العرب، الذي عمل مع الدكتور جمعة مدة خمس سنوات في المكتب التنفيذي للاتحاد، وبادل كل منهما صديقه الصدق بالصدق، والوفاء والوفاء، والإخلاص بالإخلاص.

أبيات فيها من تدفق العاطفة ما فيها من صدق المشاعر والوفاء لقيم الرجولة والشهامة العربية.

فقدناك أبا الشفيع

قَـدْ هـزّني نـعـيٌ شـقـيٌ جـانِ
حـمـل المهـابـة جـال بـالأحـزانِ
نـادى بصـوت مـرجّـف ومـعـذّب
يـغـري الـقـلـوب بشـهـقـة الـلـهـفـانِ
ومضـى يصـرّف لـوعـةً فـيـاضـةً
إذ هـاج دمـعـاً بـالـبـكـا الـهـتّـانِ
أصـلـى الـعـزاءَ بـبـاسـمٍ في حـرقـة
نـبـأٌ مـريـعٌ فـاضٍ بـالأجـفـانِ
مـا كـنـتُ مـرتـقـبـاً لـيـوم صـادم
يـخـتـارُ حـبّـاً فـازَ بـالأقـرانِ
بـدرَ الـنـفـوسَ محبّـةً ووداعـةً
مـهـرَ الـكـتـابـةَ زاهـيَ الأفـنـانِ
بـالأمس كـان أبـو الشـفـيـع مـهـلّـلاً
والـيـومَ صـارَ بـحـرمـةِ الأكـفـانِ
كـان الحريصَ عـلـى الصّـديـق كـرامـةً
كـان المنـدّى بـالـصـفـا المرنـانِ
حـفـظ الأمـانـة حـاضـراً أو غـائـبـاً
صـان الـفـضـائـل في رُبـا الأوطـانِ
يضـعُ الـقـضـايـا في مـدارٍ عـادلٍ
فـيـحـوزُ قـربـاً بـاديَ الأركـانِ
كـان الأبـيَّ إذا الـرفـاق تـلـوّنـوا
يـجـلـو سـنـاءَ الـرأي بـالبرهـانِ
كـنّـا نـواجـه فـتـنـةً مـلـعـونـةً
مـاجتْ بـلُـبٍّ عصـابـةٍ بـطـعـانِ
فـخـرتْ بـإرهـابٍ شـنـيـعٍ فـاجـرٍ
هـتـفـتْ بـقـتـلٍ وانـتـشت بـزوانِ
غصـبت حـرائـرَ في الـديـار شـريـفـةً
وسَـبَـت نسـاءً جُـرّرت بـهـوانِ
داست مـروءاتِ الـرجـالِ جـهـالـةً
نـبـشت قـبـوراً.. أفسـدت بمكـانِ
لم تـنـكسرْ- يـا صـاحـبـي- بـجـريمة
هـتـكـت مـبـادئَ رُسّـخت بـزمـانِ
يـا بـاسـمٌ يـا صـنـوَ ذكـرٍ دائـمٍ
إني أنـا الملـتـاعُ في الأكـوانِ
سـأظـلّ بـعـدكَ بـاكـيـاً بمرارة
زمـنَ الـصـداقـةِ ضـمّـنـا بـقـرانِ
إن كـان يـومُـكَ قـد أتـى بـأوانـه
وجـرى بـرَهـنِ الحقِّ والـديّـانِ
عـهـدي إلـيك بـأن أعـيشَ مُـجـالَـداً
لـلـغـدر.. والإذلالِ والخذلانِ
كـلُّ ابـنِ أنـثـى مـودَعٌ بـعـنـايـة
يـحـيـا لـوقتٍ.. يـرتـقـي بـثـوانِ

صباح الاثنين (٣٠/١١/٢٠١٥م)

مكتبة «إيبلا» من أقدم مكتبات العالم

■ يزعم أهل الشمال السوري أن بلداتهم الصغيرة المنسية المتناثرة على الهضاب الكلسية – التي كان زيت زيتونها يُضيء شوارع روما ذات يوم– هي سرّة بلاد الشام، والوارثة لملاحة الحضارات القديمة في الشرق العربي، على الرغم من إهمال ياقوت الحموي ذكر معظمها في معجمه، لأنها لم تكن في أيامه إلا قرى زراعية صغيرة، أومدناً أثرية مهجورة، أو رسوماً دارسة، في حين ذكر تلك البلدات الكبيرة العامرة بالحياة ، منها معرة النعمان بلدة فيلسوف المعرة (أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي) المكنى بأبي العلاء المعري، ونحن نفتخر بأن تربتنا تحتضن رفات ذلك الإنسان الجليل. وعلى بُعد بضعة كيلو مترات إلى الشرق من معرة النعمان يرقد الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز في دير شرقي، والناس تظن قبره في دمشق. هذه الملاحة الحضارية ازدادت حُسناً ورونقاً وألقاً مع اكتشاف وثائق القصر الملكي وسجلاته في مكتبة (إيبلا) في (تل مرديخ) عام ١٩٧٥ التي ضمت المجموعة الأقدم والأكمل من الوثائق الرسمية لدولة ظهرت في شمال بلاد الرافدين. محفوظات القصر الملكي من رقم الفخار الطينية في (إيبلا) أضافت معلومات جديدة كل الجدة إلى تاريخ سورية والمشرق القديم في النصف الثاني من الألف الثالث قبل ميلاد السيد المسيح. ويمكننا القول هنا بثقة تامة إن اكتشاف مكتبة (إيبلا) يضعنا وجهاً لوجه أمام أعظم الاكتشافات الأثرية في القرن الماضي.

(٢)

حدث ذلك في أحد أيام تشرين الأول عام ١٩٧٥ فقد كان أحد العمال يعالج تراباً هشاً من بقايا أرضية غرفة في الجناح الشمالي الغربي من القصر الملكي، شاهد فتحة صغيرة نعمل على توسيعها فظهرت حجرة كبيرة تحت أقدامه، وعندما قام المنقّبون بتوسيع تلك الفتحة وجدوا أنفسهم في حجرة واسعة حيث ظهر أمام أعينهم آلاف الرقم الفخارية الصحيحة والمكسورة وقد تكدست بعضها فوق بعض. و صرَّحت غابرييلا ماتييه زوجة باولو ماتييه مكتشف مملكة (إيبلا) في ذلك اليوم قائلة: (عندما رأينا الحجرة ووقعت عيوننا على كومة الألواح تملكنا شعور هستيري، إنها تشبه تماماً المكتبة التي أغلقها أمينها البارحة في الساعة الخامسة).

(٣)

يقول باولو ماتييه رئيس البعثة الإيطالية العاملة في تل مرديخ ومكتشف مكتبة (إيبلا): (تتألف المكتبة الملكية من عدد ضخم من رقم الفخار الطينية بلغت نحو سبعة عشر ألف وخمسمئة رقم وكسرة طينية مكتوبة، تُشكل بمجموعها الأرشيف الملكي في (إيبلا)، تتألف من نصوص إدارية واقتصادية وقضائية ودينية وأدبية ومدرسية وقوائم معجمية ورسائل ومعاهدات. وهي رقم كُتبت بالخط المسماري، ورُتّبت على رفوف خشبية. تختلف الرقم الفخارية من حيث الحجم فمعظمها صغير لا يتجاوز أبعاده بضعة سنتمترات منها النصوص الاقتصادية وبعضها كبير الحجم تتراوح أبعاده ما بين خمسة وثلاثين سنتمتراً وأربعين سنتمتراً وله شكل مربع أو مستطيل منها المعاهدات والقوائم المعجمية. وتُظهر لنا حجرة مكتبة الأرشيف الملكي ترتيباً مكتبياً عملياً للرقم الفخارية التي كانت موجودة فيها. إذ رُتبت الرقم الفخارية على رفوف خشبية –يُعتقد أنها ثلاثة– مثبتة في الجدران ولها دعائم أرضية إذ وضعت الصغيرة فوق والكبيرة تحت و يبلغ عمق الرف في حدود ثمانين سنتمتراً وتفصله عن الرف الذي يليه مسافة في حدود خمسين سنتمتراً. وقد تحوَّلت تلك الرفوف والدعائم الخشبية إلى رماد نتيجة النيران التي أصابت القصر الملكي وأدّت إلى شوي الرقم الطينية وأكسبتها صلابة ساعدتها على تحدي عاديات الزمان).

(٤)

عُثر في حجرة مجاورة للمكتبة على رقم طينية وعلى جرة مملوءة بالطين وبعض أدوات الكتابة – أقلام من العظم– مما يُثبت أن هذه الحجرة كانت تُستخدم لكتابة الرقم الطينية. وقد أكد رئيس البعثة الإيطالية باولو ماتييه أن المكتبة هُدمتْ مع القصر الملكي وقد بدا تأثير الحريق واضحاً على الخشب المتفحم وعلى (الطوب) المُجفف تحت أشعة الشمس والذي بُنيت به جدران المكتبة والقصر الملكي. وقد رجَّح أن هذا الحريق جرى بفعل الملك (نارام -سن) حفيد مؤسس الدولة الأكادية (شارو– كين) في عام (٢٢٥٠) قبل الميلاد، والذي يفخر في كتاباته: (إني أنا الذي فتح إيبلا ولم يكن بإمكان أحد قبلي أن يقوم بهذا العمل).

(٥)

أثار اكتشاف مكتبة (إيبلا) ضجة علمية كبرى بين علماء الآثار ومؤرخي الشرق القديم، فقد كانت النظرة السابقة تزعم أن سورية –خاصة في الشمال– كانت خلال تاريخها القديم منطقة نزاع دائم بين الممالك والإمبراطوريات الكبرى التي قامت على شواطئ دجلة والفرات، فجاء اكتشاف سجلات القصر الملكي في مكتبة (إيبلا) ليؤكد أمرين: الأول أن الحضارة يمكن أن تنشأ وتتطور بعيدة عن الأنهار الكبرى فدولة (إيبلا) كانت منطقة زراعية كبيرة اعتمدت –أساساً– على مياه الأمطار والمحاصيل البعلية. والثاني أن سورية كانت في الألف الثالث قبل الميلاد دولة قوية ومركزاً حضارياً مهماً كما هو حال دول المدن السومرية في وادي الرافدين: أور، أريدو، لارسا، أوروك، لكش، أومّا، أيسن، أدب، نيبور، كيش، أشنونا، بابل، ماري. هذه المدن العامرة بالحضارة كانت أرقى الأماكن في العالم التي نشأت على حافة أحواض القصب على ضفاف دجلة والفرات، وفيها ولدت الكتابة في حدود الألف الرابع قبل الميلاد، لذلك فإن اكتشاف مكتبة مملكة (إيبلا) في إدلب يُعد أحد أهم الاكتشافات الأثرية في القرن العشرين.

عبدالرزاق دحنون

تـكلم كي أراك

■ لعل الحقيقة الأجمل تبرز قيمة مفردة ومتميزة في أم لغات الدنيا، لغتنا العربية، التي تحمل من الصفات والسمات مالا تحمله لغة أخرى من لغات الأمم والشعوب المبثوثة فوق خريطة فلكنا الكوني الشاسع والرحيب بلا نهاية.

لغة طيّعة تماماً بشفافيتها ورهافتها، كما هي أجنحة الفراشات التي تلوّن حقول الله الرحبة بما يمتّع عين الناظر بألوانها ورفرفاتها الآسرة، هي لغة مركبة قراءة وسماعاً، فهي وحدها تتصف بفرادة خاصيتها دون اللغات الأخرى وتبث في مبدعها ما يؤهلها أن تكون خيالاً ووجداناً وحساً وذائقة مبدع الكلمة، الأرقّ والأشفّ في مغناه الأحلى على وتري: الإلهام المقروء والصوت المقارب للهمس الأخاذ.. الآسر!!

قد يتقن مبدع كتابة أرقّ الكلام وأبدعه، يأسر به قارئه، ولا يتقن الإلقاء، فتغيب الجماليات كلها في صوت لا يجيد المغنى، ولا يعزف على وتر يذيب سامعيه بصدى مغناه، لذا يقال: الإلقاء نصف القصيدة، ولعل (تكلم كي أراك) تكشف عن عمق مضمون المتكلم: جوهراً وقيمة أو سطحية جوهره وضآلته!

وما يفيض من مضمون فارغ القيمة والمحتوى. ولعلنا نحن، من بين أهل الأرض جميعهم بواسع الأرض وتكاثر أممها!! وحدنا من يملك أنواعاً عديدة من الكلام.. البعض يشاركنا في بعضها، وبعضها يخصنا وحدنا دون مشاركة ولا مقاربة ولا مجاورة من قريب أو بعيد!

كثيراً ما نملك لغة عيون خاصة بنا، لا يملك ندّها ومثيلها الآخرون، وما نمتلك فرادته نردفه فوراً بكلام يذهب مثلاً الناس، فموضوع العيون أردفناه بندّه الأرهف منه: (العيون مغرفة الكلام)، لذا فهذا ملكنا وخاصيتنا الخالدة!

وهناك لغة القلوب التي تشفّ لدرجة الولهان، فلا يتقن الكشف عن خفاياها أو مضامينها الغائبة البعيدة إلا عشاقها الموجعون والمولعون حد الصبابة القاتلة، ولا يجيد التعبير عنها وحياكتها قصائد ومغنى إلا الشعراء المبدعون الحقيقيون. وهناك لغة الصمت التي تغلف صاحبها بالغموض والمخفي لدرجة المستحيل أولئك هم الانطوائيون والغيبيون، وكذلك من اعتزل الحياة بصوفية عالية الغياب!

قد يعجبنا شكل ما بشخصية فائقة العذوبة في صحتها، فإذا ما تكلم صاحبها ولم يفلح وددنا لو ظل صامتاً إلى الأبد، والعكس صحيح تماماً، فلعل رجلاً شعبياً وقوراً يذهب بنا حديثه وحكاياته إلى درجة الذوبان والوله بما يجيد ويبدع من كلام، وآخر يملك عشرات الشهادات والاختصاصات ولا يجيد لعبة اللغة.. بها يملك عقول السمّيعة والحضور. إذاً فحيناً (إذا كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب)، وحيناً آخر يرقى الكلام بسامعيه وقارئيه إلى ملكوته الأعلى. بمعناه الخالد في الشعر.. في القصيدة.. في المغنى.. في الموسيقا.. في الإزميل الذي يصوغ منحوتته الخالدة، التي تتكلم بجوارحها الصماء (الحية) حتى تكاد تنطق!

تكلم كي أراك.. تلك فلسفة الطريق إلى المعرفة، والتعارف، منذ سقراط وأبعد، أراك بصوتك، وأراك بوجدانك، وأراك بعينيك، وأراك بقصيدتك، وأراك بمغناك، وأراك أحياناً بقلبي الذي ينبض فيك، ولعلي أراك بلغة الطيور وصخب الأنهار، ورفة غصون الأشجار، وهسهسات النسيم والليل، وسمر المواقد لدى الحالمين فوق سياجات العودة.. المهم أن أراك، وأسمعك، بتلويحة الشال في يديك!

محمود حامد

«غادة السمان الأديبة المبدعة» لعبد اللطيف الأرناؤوط

■ صدر عن الهيئة العامة السورية للكتاب، التابعة لوزارة الثقافة في الجمهورية العربية السورية، الكتاب الشهري ضمن سلسلة (آفاق ثقافية) كتاب جديد يحمل رقم ٣٢ بعنوان (غادة السمان الأديبة المبدعة في الثقافة العربية)، للباحث عبد اللطيف الأرناؤوط.

يتناول الكتاب موضوعات مختلفة من إنتاج غادة السمان الأدبي، الرحلات عند غادة السمان، الشعر عندها، القصة، الرواية، الخاطرة والمقالة، يقع الكتاب في ٢٤٠ صفحة من القطع المتوسط، وقد كتب مقدمة الكتاب الدكتور علي القيّم، ومما جاء فيها: (منذ أوائل الستينيات من القرن الماضي، وحتى اليوم، لا تزال أديبتنا الكبيرة محافظة على ألقها وتجددها المتواصل، لقد أدهشتنا دائماً بنور كتاباتها الباهرة الذي يتوحد فيه الفعل، ورد الفعل، من أجل انبعاث أصيل متجدد. إنها كاتبة واعية تماماً لمهمتها الكبيرة، تبحث عن هويتها العربية والإنسانية، تبحث دائماً عن خلاص ما.. عن الحرية.. عن الصفاء والنقاء.. ومن أجل ذلك تعيش التجربة بحسها المرهف، ورؤيتها الثاقبة، ومعرفتها الشاملة، وتطوع الكلمة لتكون مرآة للواقع بحلوه ومره وبلا مواربة أو خداع).

من حنظلة إلى أبي السلام... قراءة في العرض المسرحي «تغريدة أبي السلام»

■ لابدَّ لذات على مفترق طرق لا تحصى ولا يُفضي أحدها إلى استقرار حقيقي، لابدَّ لها من أن تشكل حالة إنسانية يجب تسليط الضوء عليها، وهذا ما قام به الأديب والمخرج داود أبو شقرة في عرض المونودراما الذي حمل اسم (تغريدة أبو السلام) الذي أقيم على خشبة مسرح القباني بداية، ثم انتقل إلى عدد من المحافظات واختتم عروضه في اللاذقية منذ أسبوعين.

أبو السلام، فلسطيني مُقعد في السبعين من العمر تركه أولاده الثلاثة عشر مهاجرين إلى شتى أصقاع الأرض، ثم هاتفوه تباعاً يدعونه إلى السفر إليهم، لكن هاتف الحنين إلى أرض الوطن كان يصمُّهُ عن رجائهم، فهو يريد (لمّ شمل) مع حجارة داره وأشجار أرضه، فلن يجمعهُ شتاتٌ جديدٌ بعيدٌ إلا بالمزيد من الأسى والحنين.. هاهو ذا قابعٌ هناك محاطاً بصناديق المعونات التي تحمل شعار الأمم المتحدة، وحيداً مُكبلاً بكل شيء، بكل أشكال الحصار والتغييب، ولكنه بقي على قيد الحياة ليفلَّ به كل القيود.. حياة مقاومة وذاتاً يقظة رغم بساطتها، وروحاً دافئة ذات عبارات صارخة الحروف بعيدة الصدى.. محاصراً بكل شيءٍ يخنق النفس، لكنه لا يرضى إلا أن يأخذ أنفاسهُ كاملةً ويقول كلمتهُ حتى النهاية. وقد أبدع الممثل القدير عبد الرحمن أبو القاسم في أداء شخصية أبو السلام، في التوفيق في لغة الجسد بين المنعكسات الحركية للآلام النفسية رغم المحدودية النسبية للحركة التي يفرضها وضع الشخصية الصحي (الإعاقة / مُقعد)، ولم يقم الأستاذ عبد الرحمن بتركيب بعض اللازمات الحركية والكلامية، وإنما عمد إلى إعادة البرمجة اللغوية العصبية لجسده كي يتمكن من أداء تلك الشخصية، فأتى أداؤه الفني بسوية عالية. ولم يخلُ المونولوج من نقد أبو السلام لذاته وليس فقط للتخاذل العربي إزاء القضية الفلسطينية وإزاء فلسطينيي الشتات، فقد لام نفسه على كثرة الإنجاب رغم فقره، ما تسبب في عدم تحصيل بعض أولاده لشهادات علمية، واتجاههم إلى العمل باعة سجائر مُهربة.

ولعل الصناديق الكثيرة التي تحمل شعار الأمم المتحدة والطريقة التي وضعت فيها على الخشبة جعلت أبو السلام يبدو للمتلقي وكأنه في جوف صندوق تواطأت أممٌ على وضعه فيه وختمها ظاهرٌ عليه. وجاءت السينوغرافيا المتقنةَ في معظم العرض متكئة على إضاءة من درجات اللون الأزرق، إضافة إلى السواد (الظلام) مما استحضر في ذهن المتلقي: البحر والموت.

عادة ما يُحبذ الكتاب الشخصيات المركبة، بمعنى المعقدة التكوين النفسي، عندما يختارون الكتابة لعروض الممثل الواحد.. أما أن يختار كاتبٌ شخصية بسيطة، بمعنى من طبقة اجتماعية بسيطة ويدعو جمهور المسرح الذي هو عادة من شرائح اجتماعية أعلى ثقافة ، وأن ينجح الكاتب والممثل في جعل الجمهور يصغي ويتابع على امتداد ساعة من الزمن تلك الشخصية البسيطة.. أرى في ذلك دليلاً على أن الإنسان الفلسطيني قد سُلب منذُ زمن بساطة العيش بحكم ما تعرّض لهُ من معاناة. فكل شخصية فلسطينية مهما كانت طبقتها الاجتماعية وسويتها الثقافية وفئتها العمرية هي شخصية مركبة، بمعنى أنها مضطرة أن تكون ذاتاً يقظة لأن وجودها مستهدف.. انطلاقاً من حنظلة وصولاً إلى أبو السلام، فإن كان حنظلة أدار للعالم ظهرهُ، فاليوم العالم يديرُ لأبو السلام ظهرهُ بعد أن تشعبت المؤامرات الدولية، لتطول الفلسطيني بالقتل والإرهاب حتى في شتاته. وجاء العرض المسرحي (تغريدة أبو السلام) ليؤكد أن الهوية الوطنية الفلسطينية هي أكثر هوية وطنية تم امتحانها ونجحت في الاستمرار والبقاء. ولعلها المفارقة الذكية التي تُحسب لكاتب العمل داود أبو شقرة أنه رغم الصراع الذي عكسه تتابع المونولوج وتصاعده، وعندما وصل إلى ذروته كاد يعبّر عن حالة من (انفصام الهوية– وهو مرض نفسي) والاهتزاز القوي للهوية الذاتية لشخصية أبو السلام تحت ضغط الوقائع الصادمة المُعاشة، إلا أن الهوية الوطنية لأبو السلام واضحة المعالم وشكلت جوهر مسألة أكون أو لا أكون.

ولعل السوري والفلسطيني يرى كل منهما نفسه على السواء في شخصية أبو السلام. ولعل هذا العرض المسرحي جاء في التوقيت المناسب (ذروة مشكلة الهجرة والحصار للإنسان الفلسطيني حتى بين حدود دول أوربية) ليكون نبضاً للحدث كأي عمل فني أصيل.

وقد لقي العرض المسرحي (تغريدة أبي السلام) أصداء حسنة في الأوساط الثقافية والشعبية العربية، فقد اختارت الهيئة العربية للمسرح ثماني مسرحيات بغية ترجمتها إلى اللغة الانكليزية لصالح الهيئة الدولية للمسرح، نموذجاً عن المسرح العربي، وكان ترتيب (تغريدة أبي سلام) الثالث.

من المآخذ على هذا العرض المسرحي ورود بعض العبارات تندرج في إطار الإبلاغ، عوضاً عن تقديمها إلى المشاهد ب(بلاغة)، لكن العمل بالمجمل كان بليغاً والفنُ بلاغة.

سامر منصور

بطاقة العمل

تأليف وإخراج: داود أبو شقرة
تمثيل: عبد الرحمن أبو القاسم
موسيقا: حسين نازك
سينوغرافيا: محمود خليلي
تصميم إضاءة: بسام حميدي
مونتاج المادة الفلمية: ماهر شنان
فوتوغراف: محمد خليلي
التسجل والمكساج: حسين حناوي
الصوت الإذاعي: هدباء العلي
المادة الإعلانية: محمود خليلي، وعلي خليلي
مدير المنصة: سامر الحسن
تنفيذ الإضاءة: محمد إدلبي